

أسس النهضة الفكرية

عند الإمام محمد عبده

د. سميه محمد محمود *

يعد الإمام محمد عبده أحد الأعلام البارزين الذين قادوا حركة الإصلاح والتنوير في العالم الإسلامي على أسس عقلية بعيدة عن الجمود والتعصب ، وإليه يرجع الفضل في توضيح وشرح الإسلام بنظرة واعية شاملة لكافة قطاعات الحياة .

نبذة سريعة عن السيرة الذاتية للإمام .

ولد الشيخ محمد عبده سنة 1849 م في قرية محلة النصر وهي إحدى قرى محافظة البحيرة ، وقد نشأ في أسرة متوسطة الحال ، وقد تعلم القراءة والكتابة في منزل والديه دون أن يذهب إلى الكتاب ، وقد أتم حفظ القرآن الكريم بعد أن جاوز العاشرة من عمره ، على حافظ خاص ، ثم ذهب إلى الجامع الأحمدي في طنطا ليتعلم تجويد وقواعد اللغة العربية، لكن منهج التعليم في الجامع الأحمدي كان وعراً شاقاً ، فكان الصبي أن ينصرف عن العلم وأن يشتغل بالزراعة لولا أن التقى بأحد أحوال أبيه

* كلية علت بجدة - المملكة العربية السعودية .

الشيخ درويش ، الذى استطاع أن يروض جماحه ، وأن يوجهه إلى المعانى القدسية والذائد الروحية (1).

وفى سنة 1866 م التحق الشيخ محمد عبده بالجامع الأزهر أهم مركز للثقافة الإسلامية ، ولكن طريقة التدريس فى الأزهر آنذاك كانت عقيمة ، تفرض على الطلاب مختصرات لا تفهم إلا بشروح وحواش تزهق الفكر ، وتعوقه عن النمو (2).

وقد انقطع محمد عبده عن الدروس ، ومارس ضروباً من الزهد والرياضة ، ولكنه اجتاز هذه الأثرة بفضل الشيخ درويش أيضاً (3). ثم التقى بعد ذلك بشخصية البطل الثائر جمال الدين الأفغانى ، الذى يعد بحق رائد الحرية الدينية والسياسية فى نظر الشعوب الشرقية (4)، والذى التف حوله صفوة القوم فى القاهرة .

وقد استطاع محمد عبده بفضل ما تلقاه عن أستاذه من هداية روحية ، أن يتحول نهائياً عن طريق الزهد ، وأن يقبل على الحياة العامة إقباله على دراسة العلوم المختلفة ، كالفلسفة والرياضيات والكلام والأخلاق والسياسية وغيرها ، مما لم يكن فى مناهج الأزهر (5).

(1) د. عثمان أمين : رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده ، ص 25 - 26.

(2) المصدر السابق ، ص 26.

(3) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، ج 1 ، ص 107 - 108.

(4) د. عثمان أمين : رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده : ص 27.

(5) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، ص 26.

وفى سنة 1877 حصل على شهادة العالمية من الأزهر ، ثم بدأ
يلقى دروساً فى المنطق والكلام والأخلاق ، وامتازت دروسه بمنهج
جديد، جمع حوله عدداً من الطلاب ، ومع أنه كان مدرساً إلا أنه كان
مفكراً لم يكف قط عن الدرس والارتشاف من مناهل العلوم التى كانت
تسمى (بالحديثه) لأنها لم تكن مألوفة فى التعليم بالأزهر⁽¹⁾.

ومن التدريس إلى الصحافة ، حيث كتب فى جريدة الأهرام فصولاً
متتابعة ، سامية المرمى مشتملة على أصول الدعوة الإصلاحية التى
صرف الإمام كل حياته فى سبيلها . وقد ظل الإمام يناضل فى سبيل نشر
دعوته ، إلى أن وافته المنية سنة 1905م⁽²⁾.

ونحاول فى هذا البحث إلقاء الضوء على جانب من جوانب تفكير
الشيخ محمد عبده وأفكاره التى طرحها ، والتى كانت من أهم عوامل قيام
النهضة الفكرية .

لقد نظر الإمام محمد عبده إلى أحوال المسلمين ، فوجدها قد
أصيبت بالضعف والانهيار ، وأرجع ذلك إلى عاملين اثنين يرتبط الثانى
بالأول ارتباطاً وثيقاً ، هذان العاملان هما :

(1) د. عثمان أمين : رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده ، ص 31.

(2) الشيخ مصطفى عبدالرازق : محمد عبده ، ص 77، وقد كتب الشيخ رحمه الله فصولاً وافية عن حياة
الأستاذة الإمام ورحلاته ودعوته الإصلاحية فى الكتاب مالف الذكر.

1- سوء الأحوال السياسية :

اعتبر الشيخ محمد عبده أن خليفة المسلمين آنذاك قد أخطأ في سياسته ، إذ صنع جيشاً أجنبياً من الترك والديلم وغيرها من الأمم ، التي ظن أنه سيخضعها لإرادته ويستعبد لها لسلطانه ، واتخذ من سعة الإسلام وسهولته ما يبيح له ذلك ، هنالك استعجم الإسلام وانقلب عجمياً ، يقول : (أخطأ الخليفة في السياسة فاتخذ من سعة الإسلام سبيلاً إلى ما كان يظنه خيراً له ، ظن أن الجيش العربي قد يكون عوناً لخليفة علوى ، لأن العلوية كانوا ألصق ببيت النبي (ص) ، فأراد أن يتخذ له جيشاً أجنبياً من الترك والديلم وغيرها من الأمم التي ظن أن يستعبد لها لسلطانه ويصطنعها بإحسانه ، فلا تساعد الخارج عليه ، ولا تعين طالب مكانة من الملك ، وفي سعة أحكام الإسلام وسهولته ما يبيح له ذلك ، هنالك استعجم الإسلام وانقلب عجمياً) ⁽¹⁾.

2- إهمال العلم وأهله :

وهذا العامل كما قلنا يرتبط بما قبله ، إذ نتج عن سوء الأحوال السياسية أن أهمل العلم ، ولم يعظم أهله ، فكان هؤلاء العجم يجعلون أعوانهم يتدربون في سلك العلماء ليضعوا للعامة في الدين ما يفيض إليهم العلم ، ويبعد بنفوسهم عن طلبه ، بل وتطاولوا على الإسلام

(1) الإسلام دين العلم والمدنية ، ص 148.

وإدعوا نقصه ، فأدخلوا عليه ما ليس منه ، بما يخدم مصالحهم وأهواءهم يقول : (أى عدو لهؤلاء أشد من العلم الذى يعرف الناس منزلتهم ويكشف لهم قبح سيرهم ، فمالوا على العلم وصديقه الإسلام ميلتهم ، أما العلم فلم يحفلوا بأهله ، وقبضوا عنه يد المعونة ، وحملوا كثيراً من أعوانهم أن يتدرجوا فى سلك العلماء ، وأن يتسربلوا بسرابيله ، ليعدوا من قبيله ، ثم يضعوا للعامة فى الدين ما يبغض إليهم العلم ويبعد نفوسهم عن طلبه ، ودخلوا عليهم وهم أغرار من باب التقوى وحماية الدين ، زعموا الدين ناقصاً ليكملوه ... نظروا إلى ما كانوا عليه من فحفة الوثنية ، وفى عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية ، فاستعاروا من ذلك للإسلام ما هو براء منه) (1).

وكان من نتيجة سوء الأحوال السياسية وإهمال العلم وأهله أن ظهرت سلبيات عديدة ، كان لها آثار سيئة على شتى مجالات الحياة الثقافية فى مصر ، وخلفت وراءها عدة مظاهر ، نذكر منها :

أولاً : جمود اللغة :

أول الآثار السلبية فى الحياة الثقافية ، وأول نتائج الجمود الذى ساد الحياة الفكرية فى مصر فى تلك الفترة ، كان على اللغة العربية وآدابها وأساليبها ، لأن اهتمامات الناس لم تكن موجهة للاحتفاظ بتراثهم وتطويره ، بل التبعية والتقليد كان السمة البارزة ، كما كانت طرق

(1) المصدر السابق ، ص 148 - 149.

التدريس عقيمة لا تؤدي إلى نفع الطالب ، بل على العكس من ذلك قد كانت سبباً في مقاطعته للتعليم بغير رجعة ، وقد حدث هذا للإمام نفسه ، لكن الله قد من عليه بمن أخرجه من تلك الأثرة ، يقول : (وقد وقع لى أنى مكثت سنة ونصف السنة لا أفهم شيئاً من شرح الكفراوى على الأجرومية ، فحملنى عدم الفهم على الهروب من طلب العلم لتمكن اليأس من نفسى ، ولكن لأمر أراده الله قهرنى ، فهربت فى الطريق ، ولكن صادفت فى مهربى من علمنى كيف أطلب العلم من أقرب وجوهه ، فذقت لذته واستمرت فى طلبه) (1).

ويوضح لنا الأستاذ الإمام مخاطر التقليد فى مجال اللغة العربية ، والذى أدى بدوره إلى جهود اللغة حيث توقف اللاحق عن توضيح وتطوير ما قاله السابق ، خوفاً من الوقوع فى الذلل ، فظلت أساليب اللغة جامدة وغير واضحة ، يقول الإمام : (أول جناية لهذا الجمود كانت على اللغة العربية وأساليبها وآدابها ، فإن القوم كان يعنون بها حاجة دينهم إليها ، أريد حاجتهم فى فهم كتابهم إلى معرفة دقائق أساليبها ، وما تشير إلى هيئة تراكيبيها ، وكانوا يجدون أنهم لن يبلغوا ذلك حتى يكونوا عرباً بملكاتهم ، يساؤون من كانوا عرباً بسلاتهم ، فلما لم يبق للمتأخر إلا الأخذ بما قاله المتقدم ، قصر المخلصون تحصيلهم على فهم كلام من قبلهم ، واكتفوا بأخذ حكم الله منه بدون أن يرجعوا إلى دليله ، ولو نظروا إلى الدليل فرأوه غير دال له بل دالاً لخصمه ، بأن كان عرض له

(1) الأعمال الكاملة ج3، ص 144.

فى فهمه ما يعرض للبشر الذين لم يقرر الدين عصمتهم ، لخطئوا
نظرهم ، وأعموا أبصارهم ، وقالوا : نعوذ بالله أن تذهب عقولنا إلى غير
ما ذهب إليه متقدمنا⁽¹⁾.

ثانياً : جمود العقيدة :

رأى الإمام أن أساس الجمود الذى أصاب علم العقيدة يرجع إلى
العلماء ، الذين انصرفوا إلى التقليد والنقل من غير تثبيت أو تمحيص ،
حيث أخذ كل شخص عن عرفه وظن أنه أهل للأخذ عنه ، دون بحث أو
تحقيق ، وكانت نتيجة ذلك انصراف الناس عن الكتاب والسنة ، والأخذ
بأقوال هؤلاء العلماء الذين قدموا لهم ديناً ممسوخاً مشوهاً ، بعيداً عن
الإسلام فى بساطته ويسره ، فشاع بينهم موضوعات الأحاديث (أى
الأحاديث الموضوعة) ، وأهملوا العقل فى العقائد على خلاف ما يدعو
إليه الكتاب المبين والسنة المطهرة يقول : (انسحب التساهل فى الاعتماد
على النقل إلى الخروج عما اختطه لنا السلف رضى الله عنهم ، فقد كانوا
ينقبون عن صفات من ينقلون عنه ، ويمتحنون قوله ، حتى يكونوا على
شبه اليقين من أنه موضع الثقة ، ولكن جمود المتأخر على ما يصل إليه
من المتقدم صير النقل فوضى ، فتجد كل شخص يأخذ عن عرفه وظن
أنه أهل للأخذ عنه بدون بحث ولا تنقيب ، حتى شاع بين الناس من

(1) الإسلام دين العلم والمدنية ، ص 150 - 151.

الأقوال وموضوعات الأحاديث ، ما ترتفع الأصوات بالشكاية منه من حين إلى حين (1).

وكان من نتيجة هذا كما يقول الإمام : (سوء الاعتقاد الذي نشأ من رداة التقليد ، الجمود عند حد ما قاله الأول بدون بحث في دليله ولا تحقيق في معرفة حاله) (2).

والأخطر من هذا كله - كما يرى الإمام - وقوف العامة في وجه من يريد إيضاح حقائق الدين يقول : (فلو قام العالم بالدين ، وأراد أن يبين حكم الله المصريح في كتابه وسنة نبيه (ص) ، المجمع عليه عند السلف قاطبة ، انتصب له ناعب من العامة يصيح في وجهه : (ما سمعنا بهذا في آباءنا الأولين) ويريد من آباءنا الأولين من رآهم بعد ولادته أو ذكرت له أسماؤهم بلسان مضليه حتى صار إرشاد العامة من أصعب الأمور وأشقها على طالبه) (3).

جمود الشريعة وأهلها :

يرى الإمام أن الجمود قد ساد مجال الشريعة أيضاً ، كما حدث في مجال العقيدة ، فضيق الناس على أنفسهم ، وأصبح الاتقياء من حملتها بالرغم من قلتهم يتخاصمون إلى سواها ، بل وقع أغلب العامة كذلك في

(1) الإسلام دين العلم والمدنية ، ص 155.

(2) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(3) الإسلام دين العلم والمدنية ، ص 156.

مخالفة الشريعة لأنهم لم يحاولوا فهم نصوصها . يقول الإمام : (صعب تناول الشريعة على الناس حتى رضوا بجهلها عجزاً عن الوصول إلى علمها ، فلا ترى العارف بها من الناس إلا قليلاً لا يعد شيئاً إذا نسب إلى من لا يعرفها . وهل يتصور من جاهل بشريعة أن يعمل بأحكامها ؟ فوق أغلب العامة في مخالفة شريعتهم ، بل سقط احترامها من أنفسهم ، لأنهم لا يستطيعون أن يطبقوا أعمالهم بمقتضى نصوصها ، وأول مانع لهم ضيق الطاقة عن فهمها لصعوبة العبارات ، وكثرة الاختلافات) (1).

وقد حدد الإمام أسباب الانحراف عن حدود الشريعة بأمرين : الأمر الأول ؛ فقد العارف بالشريعة والدين ، وسقوط القرية أو المدينة في جاهلية جهلاء ، لضعف أهلها في معرفة الحلال والحرام ، والأمر الثاني ؛ هو عجز العارف عن تفهيم من يسأله ، لعجز لسانه عن حسن التعبير بطريقة تفهمها العامة (2).

ويصل الجمود غايته - كما يرى الإمام - إلى إحجام الداعية عن الدعوة ، بدعوى أن الناس لا يعملون بها ، وذلك لعجزه عن التعبير وتفسير نصوص الشريعة بطريقة مفهومة . يقول الإمام : (كان كلام بينى وبين أحد المدرسين في أخذ الطلبة بالنصيحة وتذكيره بفضائل الأخلاق ، وصالح الأعمال ، خصوصاً عند إلقاء الدروس الفقهية ودروس الحديث والتوحيد ، فقال لي : أنه لا فائدة في ذلك قطعاً ، وهو تعب في غير

(1) المصدر السابق ، ص 153.

(2) المصدر السابق والصفحة .

طائل. فقلت له : ذلك حق عليك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ،
وليس عليك أن ياتمر المأمور ولا أن ينتهى المنهى . فقال : إذا تحققت
استحالة المنفعة كان الأمر والنهى لغواً⁽¹⁾.

جمود متعلمى المدارس النظامية :

يرى الإمام أن الجمود قد أحدث قريقاً آخر من المتعلمين ، على
الطرق الجديدة فى مدارس الحكومات الإسلامية ، أو فى المدارس
الأجنبية داخل بلادهم أو خارجاً عنها فى مصر وسوريا أو سائر بلاد
الدولة العثمانية . وهؤلاء قد تعلموا فى مدارس رسمية وغير رسمية ،
عن أساتذة فيهم المسلم وغير المسلم ، بل وفى مدارس لم تبين إلا
لترويج دين غير الدين الإسلامى ، أباحت لهؤلاء التلامذة أن يسكتوا وألا
ينكروا عليهم عملهم ، مادامت العقيدة سالمة من الهدم أو الضعضة⁽²⁾.

جمود تلاميذ المدارس الأجنبية :

يرى الإمام أن الجمود قد سرى أيضاً إلى تلاميذ المدارس
الأجنبية، حيث لا أثر لتعاليم الدين الإسلامى فى هذه المدارس ، بل ربما
يعلم فيها دين آخر قد يؤدى إلى شئ من الضعف فى عقائدهم ، وقد
تذهب عقائدهم بالمرّة وتحتل مكانها عقائد أخرى تناقضها ، كما شوهد

(1) المصدر السابق ، ص 154.

(2) المصدر السابق ، ص 156 - 157.

ذلك مراراً . ثم يوجه الإمام اللوم على الآباء ، إذ لو كانوا على علم بطرق الاستدلال الإقناعية لعقائد دينهم لدعموا من عقائد أبنائهم وحفظوها من التزلزل أو الزوال⁽¹⁾.

جمود تلاميذ المدارس الرسمية والأهلية :

ويرى الإمام أن الجمود الذى ساد تلاميذ هذه المدارس لا يرجع إليهم فقط ، وإنما إلى جهل من يسمع المصطلحات التى تعلموها فى تلك المدارس ، حيث درسوا شيئاً من المعارف فى الفنون المختلفة ، وعلموا حقائق عن الكون السماوى والاجتماع الإنسانى ، فإذا سمعوا شيئاً من ألفاظها ظنوا أن هذا مخالف للعقيدة الصحيحة فيلومنون المتعلم ، ويوبخونه ، بل والأصعب من هذا اتهامه بالمروق من الدين ، ولجهل ذلك المتعلم بأمور الدين ، يعتقد أن ما يقوله خصمه صحيح ، فينفر من دينه ، وإذا قال له قائل : ارجع إلى كتب الدين لتتعرف على حقائقه فإنه لا يدري إلى أى كتاب يرجع ، فينفر من الدين نفور من لا يمكنه الفهم⁽²⁾.

ثم يرى الإمام أن هؤلاء لو نظروا فى كتب دينهم وفى أقوال حملته ، لوجدوا ما به تطمئن نفوسهم ، ولذاقوا طعم العلم من نفع

(1) المصدر السابق ، ص 157.

(2) المصدر السابق والصفحة .

أنفسهم ، ولصار منهم من ينفع الأمة فى سياسة أفكارها وأعمالها الاجتماعية⁽¹⁾.

كما يرى الإمام أن القصور فى هذه المدارس يرجع كذلك إلى طريقة المعلمين وسلوك المتعلمين ، حيث كان المعلم يلقي التلاميذ ما هو فى كتبهم دون ابتكار أو إبداع ، والتلاميذ بدورهم يركنون إلى ذلك ويحفظون ما يلقون ، فهم لا يريدون الخروج عن المألوف وعما اعتاد غيرهم ، ويوضح ذلك بقوله : (ولو كشفنا عن أذهان التلامذة ، لم نجد فيها غاية لتعلمهم ، سوى أن يعيشوا كما عاش غيرهم ، أى دون رغبة فى تطور أو تطلع إلى آفاق جديدة للحياة ، ولو استفرغنا أذهان المعلمين لم نجد فيها من المقاصد سوى أنهم يلقون ما يجدونه فى الكتب المقررة للتلامذة ، ويطالبونه بحفظه وفهم عبارته ، ليعيدوا يوم الامتحان تلاوة ما ألقى إليهم حتى تتم مدة تعليمهم فى المدرسة)⁽²⁾.

هذه هى أهم العوامل التى أدت إلى انحطاط أحوال المسلمين وما نتج عنها من مظاهر الجمود والتخلف ، ومن هنا أخذ الأستاذ الإمام على عاتقه محاولة الإصلاح فى شتى المجالات لإحداث النهضة الفكرية التى لا مناص منها فى إصلاح المجتمع والعودة به إلى سابق عهده ، وقد ركز الإمام على عدة جوانب يتم من خلالها إصلاح الخلل الجمود الذى أصاب الحياة العقلية آنذاك .

(1) المصدر السابق ، ص 158 - 159 .

(2) الأعمال الكاملة ، ج3 ، ص 110 وما بعدها .

أولاً : إصلاح اللغة العربية وأساليبها :

أوضحنا سابقاً أن الإمام قد وجه نقده إلى الطرق التي يتم بها تدريس اللغة العربية ، والتي أدت إلى جمودها ، وإلى إحجام الطالب عن معرفتها وتحصيلها ، يقول : (يبادى الطالب وهو لا يعلم شيئاً من اصطلاحات العلم ، بتحقيق المسائل ، وتفتيتها كما يقولون ، كأنه عريق فى العلم ولا يراعى مقدار استعداده للفهم) (1).

ومن أهم وسائل العلاج التي وضعها الإمام فى هذه المسألة ، أن قدم حلاً منهجياً يجعل تحصيل الطالب سهلاً وميسراً وهو التزام المعلم فى التدريس بطرق التدرج من الأسهل شيئاً فشيئاً ، وذلك حتى تتسع آفاق الطالب ، ويصل إدراكه إلى درجة فهم المعانى الصعبة المعقدة ، يقول : (فيجب على المدرس أن يتنازل مع المبتدئ إلى درجته ، ثم يرتقى به شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى الدرجة التي يتمكن فيه من إدراك دقيق المعانى) (2).

ثانياً : الإصلاح الدينى :

نبدأ حديثنا فى هذا الجانب من فكر الإمام بما قاله الشيخ مصطفى عبدالرازق فى هذا الشأن : (كان الشيخ محمد عبده أيام رياسته لتحرير

(1) الأعمال الكاملة ، ج3، ص 144.

(2) المصدر السابق والصفحة .

الجريدة الرسمية رجلاً دينياً ، يصدر عن الدين في كثير من دعواته الإصلاحية تبعاً لروح الوقت ، فهو يلتزم لمجلس النواب أدلة دينية ، ويسعى لإبطال البدع من سبيل ديني ، ويظهر النهج الديني في خطابه كله ، على أن الدعوة إلى الإصلاح الديني وتخليصه من شوائب الأزمان والأجيال ، ورده إلى سذاجته الأولى ، ليصافح العلم والمدنية ويتسع لحرية العقل⁽¹⁾.

وهذا ما نريد إثباته ، وهو أن الإمام محمد عبده حين دعا إلى الإصلاح الديني لم يكن برجل الدين المتعصب المتنطع كما هو معروف - مع الأسف - عن شخصية رجل الدين ، وفي تراثنا نماذج عديدة عن هذا التعصب والانغلاق ، وإنما دعا إمامنا إلى الانفتاح والعلم ، وأثبت أن الإسلام لم يكن أبداً ضد العلم وإنما يدعو دائماً إليه وإلى الاستزادة منه . وقد شمل برنامجه الإصلاحي ما يلي :

التركيز على العقل :

أكد الشيخ محمد عبده ، وهو بصدد وضع برنامجه الإصلاحي ، على أهمية العقل كأهم وسيلة من وسائل الإصلاح ، بل أفضلها على الإطلاق يقول : (العقل قوة من أفضل القوى الإنسانية ، بل أفضلها على

(1) الشيخ مصطفى عبدالرازق ، محمد عبده ، ص 118.

الحقيقة⁽¹⁾. وقد حدد مجموعة من القواعد الإنسانية التى تنهض بالعقل وتؤدى إلى رفعة نذكر منها :

أ- نبذ التقليد :

رأى الإمام أن التقليد يشكل عقبة للعقل ، وينأى به عن الإبداع والابتكار ، من أجل هذا نجده يؤكد ، فى مواضع كثيرة ، على ضرورة محاربة التقليد ، حيث يعتبر البعض أن علوم السابقين لن يستطيع أن يأتى بها اللاحقون ، انطلاقاً من المقولة (ليس فى الإمكان أبدع مما كان)، أما الإمام محمد عبده ، فقد رأى العكس من ذلك ، يقول : (اللاحق له من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها ، والانتفاع بما وصل إليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه)⁽²⁾.

ب- فتح باب الاجتهاد :

وكما دعا الإمام إلى محاربة التقليد ونبذه ، فقد حث على الاجتهاد والبحث والتحقيق ، حتى ولو أخطأ المجتهد ، فالاجتهاد طريق الوصول إلى الحقيقة ، يقول : (ومن المعلوم أن من سلك طريق الاجتهاد ولم يعول على التقليد فى الاعتقاد ولم تجب عصمته ، فهو معرض

(1) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية : للشيخ محمد عبده ، ص 76، طبعة دار المنار، مصر 1373هـ.

(2) رسالة التوحيد ، ص 154 - تحقيق محمود فؤادية - الطبعة الرابعة ، دار المعارف .

للخطأ، ولكن خطاه عند الله واقع القبول ، حيث كانت غايته من سيره ومقصده من تمحيص نظره أن يصل إلى الحق ويدرك مستقر الدين⁽¹⁾.

هـ - محاربة البدع والمفاهيم الخاطئة :

رأى الأستاذ الإمام أن الوهن والتخلف الذى أصاب المسلمين لا يرجع إلى الدين الإسلامى ، وإنما يرجع إلى البدع والمحدثات التى أحدثوها فى دينهم ، واعتقدوا بصحتها فأحلوها محل الاعتقاد الصحيح واستبدلوا بها قواعد وأصول الدين ، يقول : (عرضت البدع فى العقائد والأعمال ، وحلت محل الاعتقاد الصحيح ، وأخذت مكان الشرع القويم ، وظهرت آثارها فى أعماله وعم شؤمها جميع أحواله)⁽²⁾.

فمن البدع التى استرعت انتباه الأستاذ الإمام : حلقات الذكر وما يصاحبها من طبول ، وطالب بمنع تلك الحلقات فى المساجد أو أضرحة الأولياء⁽³⁾.

كما طالب بمنع العادات السيئة التى تحدث عند زيارة قبور الموتى وقارن بين سلوكياتنا وسلوكيات الأوربيين الراقية ، وكيف أن تلك الزيارات يصاحبها الهدوء والسكينة ، ويرى أن زيارة الموتى عندنا يتبعها عادات سيئة فى المأكل والمشرب ، أما عادات الأوربيين فليس

(1) الأعمال الكاملة ، ج3، ص 443.

(2) المصدر السابق ، ص 227.

(3) المصدر السابق ، ج2، ص 25 وما بعدها .

فيها طعام ولا شراب ، بل سكينه واحترام يقول : (وبجوار تلك الرفات تبث ليلتك تلهو وتلعب ، تصيح وتصخب كأن الموت قد فارق ديارك ، وكره جوارك ، وفر من بين يديك ، مشمئزاً مما يرى لديك ... أما مقبرة مسينا⁽¹⁾ فلا ترى فيها آكلًا ولا شاربًا ، وإنما ترى الزائرين في سكينه ووقار⁽²⁾).

ومن الأمور التي شوهت صورة الدين كذلك مفاهيم المسلمين الخاطئة عن بعض أمور الشرع الحنيف ، مثل التوكل والقضاء وغير ذلك ، فقد طنوا أن التوكل إنما هو الرضا بالواقع وعدم القدرة على التغيير ، فتكاسلوا وقعدوا عن العمل يقول : (فإذا ذكرت نقصاً أو عيباً في طريقة أو في حالة من الأحوال قيل لك : ماذا تصنع ؟ ونحن أناس متوكلون على الله ، وهذا مراد الله ، وهذا عذر المقصر في تقصيره في بلاد الإسلام وعون على ما نراه من النقص في طريق تحصيل العلم)⁽³⁾.

ومن المفاهيم الخاطئة أيضاً فهم المسلمين عن القضاء فقد استسلموا متواكلين وسلموا أمورهم لغيرهم دون الأخذ بالأسباب أو المسببات ، وغير عابئين بما يدفع الضر عنهم أو يزيل آثاره ، يقول في هذا واصفاً لحال المسلم : (فإن أصابته مصيبة أو حلت به رزية تسلى بالقضاء وانتظر ما يأتي به الغيب ، بدون أن يتخذ وسيلة لدفع الطارئ ،

(1) إحدى المقابر في صقلية .

(2) الأعمال الكاملة ، ج 2 ، ص 193 - 195 .

(3) الأعمال الكاملة ، ج 3 ، ص 138 .

أو ينهض إلى عمل لتلافى ما عرض من خلل أو مدافعة الحادث الجلل ،
مخالفاً في ذلك كتاب الله وسنة نبيه (1).

إصلاح الأزهر :

لا شك أن إصلاح الأزهر قد جاء على رأس أولويات الإصلاح
الدينى . فلم يكن المقصود منه أن يكون مسجداً للعبادة ، ولا أن يكون
مدرسة للتعليم فحسب ، وإنما أثر الأزهر فى العالم الإسلامى وفى تكوين
العقلية الإسلامية أثر عميق يفوق المساجد والمدارس والجامعات . من
أجل ذلك كان إصلاح ذلك المعهد فى نظر الأستاذ الإمام من الأهمية
بمكان ، لأنه بمثابة إصلاح للأمة الإسلامية كلها (2).

أما عن التعليم بالأزهر فى تلك الفترة ، فكان عقيماً لا يشجع على
الإبداع والابتكار ، وكان الاتجاه السائد : غلبة النقل على العقل ، بدليل
أنهم يرتبون العلوم فيجعلون فى ناحيتها العلوم النقلية كالتوحيد والفقه
والحديث والتصوف ، وفى المنزلة الثانية تأتى العلوم العقلية : اللغة
والعروض والبلاغة والمنطق وعلم الفلك الذى لا يراد بدراسته إلا
الوصول إلى معرفة مواقيت العبادة (3).

(1) المصدر السابق ، ج 3 ، ص 229 وما بعدها .

(2) د. عثمان أمين ، رائد الفكر المصرى ، ص 189 .

(3) مصطفى عبدالرقيق ، محمد عبده ، ص 37 .

كما ذكر مسيو ولر من أن العلوم التى كان يعتنى بدراستها فى الأزهر ، هى العلوم النقلية وبعض العلوم العقلية دون الأدب والتاريخ والرياضيات والطبيعات والفلسفة ، وهو الذى يفهم من كلام على مبارك باشا المتوفى سنة 1893م ، فى الجزء الرابع من خطته المطبوعة بمطبعة بولاق سنة 1306هـ إذ يقول عن الأزهريين : (وليس لهم التفات لنحو التاريخ والجغرافية والفلسفة ، بل يرون ذلك بطالة وتضييعاً للزمان بلا فائدة ، وينهون من يقرأ كتب الفلسفة ، ويشنون عليه الغارة ، وربما ينسبونه للكفر)⁽¹⁾.

هكذا كان حال الأزهر فى عهد الإمام ، لذا أخذ على عاتقه مهمة إصلاح هذا الصرح الدينى الشامخ ، من خلال توضيحه لدور الأزهر ورسائله التى أنشئ من أجلها ، والتى يمكن أن نلخصها - كما أوضحها الإمام وتراعت له حينئذ - فى الأمور التالية :

1- أوجب الإمام أن يكون الأزهر جامعة بالمعنى الصحيح ، يتلقى فيها الطلاب الثقافة الصحيحة التى تعدهم لأن يكونوا رجالاً عاملين ، وأساتذة باحثين ، وعلماء متخصصين ، يعملون على بث الآراء الدينية السليمة ، ومكافحة الخرافات ، والقضاء على البدع والأباطيل .

(1) نقلًا عن مصطفى عبدالرازق ، محمد عبده ، ص 37 - 38.

- 2- نبه إلى تقسيم مدة الدراسة بالأزهر ، وتحديد أيام العطلات ، حيث كانت الحال قبل ذلك بلا ضابط : فكان المشايخ والطلاب يمكنهم التغيب متى شاءوا ، فضلاً عن تغيبهم أيام المسامحات الرسمية .
- 3- اقترح الإمام أن تعقد للطلبة امتحانات سنوية ، ولم يكن ذلك النظام معروفاً قبل ذلك في الأزهر .
- 4- أشار إلى تقسيم العلوم التي تدرس بالأزهر إلى علوم مقاصد ، وعلوم وسائل . وطالب بإطالة مدة الدراسة في علوم المقاصد كال تفسير والتوحيد والحديث والفقه وأصوله والأخلاق ، أما علوم الوسائل كالمنطق والنحو والبلاغة ومصطلح الحديث ، فضم إليها الحساب والجبر . وهذه العلوم بقسميها هي التي يلزم طلاب الشهادة العالمية بأداء الامتحان فيها .
- 5- طالب بإدخال دروس جديدة في علوم التاريخ والتاريخ الطبيعي والرياضيات والجغرافيا والفلسفة والاجتماع مما كان مهملأً تدريسه بالأزهر في ذلك الحين ⁽¹⁾.

ثالثاً : الإصلاح الاجتماعي :

أوضحنا فيما سبق أن الإمام قد هاجم الجمود الذي ساد في مجال العقيدة، والذي أدى إلى قفل باب الاجتهاد الذي أدى بدوره إلى حدوث مشكلات اجتماعية تفتقر إلى الحلول ، لذلك وجد الإمام أنه من الأهمية

(1) د. عثمان أمين ، رلد الفكر المصري ، 190 - 191 .

بمكان تطوير المفاهيم الدينية ، والاجتهاد فى أحكام الشريعة حتى تستوعب مشكلات المجتمع . فمثلاً : الزكاة التى افترضها الله تعالى على القادرين ليؤدوها إلى الفقراء مثال للتكافل الاجتماعى ، وحل لمشكلة الفقر فى المجتمع ، وانتفاء لمشاعر الحقد والبغض من الفقراء على الأغنياء (1).

وهناك مشكلات اجتماعية أخرى عالجها الأستاذ الإمام ، وهى موقف الدين الإسلامى من الملل الأخرى ، وقد رأى أن جهل المسلم بهذه الأمور ينتج عنه مشكلات اجتماعية كبيرة ، ولو فهم المسلمون حقيقة الدين الإسلامى ، لغيروا كثيراً من معتقداتهم ، لأن الدين الإسلامى الحقيقى ليس عدو الألفة ، ولا يحرم المسلمين من الانتفاع بعمل من يشاركهم فى المصلحة ، وإن اختلف عنهم فى الدين ، وإنما الخطأ الذى وقع فيه الناس أنهم انقادوا إلى الأفكار التى أدخلها أعداء الإسلام ، فأحدثوا الفتنة بينهم ، يقول : (ولكن عرض على الدين زوائد أدخلها عليه أعداؤه ، اللابسون ثياب أحيائه ، فأفسدوا قلوب أهاليه ، ولا قلوب أقرب إلى الإصلاح من قلوب أهل مصر) (2).

كما يؤكد على أن القرآن يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب ، وينبذ كافة صور التعصب ، يقول : (فالقرآن وهو منبع الدين يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب حتى يظن المتأمل فيه أنهم منهم ، لا يختلفون إلا

(1) الأعمال الكاملة ، ج 3 ، ص 109.

(2) المصدر السابق ، ج 3 ، ص 109.

فى بعض أحكام قليلة ، أى أن الدين يدعو إلى الوحدة والتماسك والترابط والتضامن بين أفراد المجتمع ونبذ كافة صور التعصب⁽¹⁾.

تفسير القرآن :

وبناء على نظرة الإمام للدين ، جعل تفسيره للقرآن محوراً أساسياً لحل كافة المشكلات الاجتماعية والأخلاقية ، ومن الملاحظ أن تفسير الإمام محمد عبده للقرآن الكريم يعد مظهراً من مظاهر النهضة الفكرية ، لأن هدفه الأساسى كان متجهاً إلى فهم الكتاب ، من حيث هو (دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة)⁽²⁾. ولذلك جاء منهجه فى التفسير مخالفاً لمناهج سابقه ، إذ كان لا يعنيه إلا فهم روح القرآن الكريم ، والوقوف على معانيه العامة ، دون التمسك بحرفية الكتاب . فقد كان حريصاً منذ البداية على التوسع فيما أغفله أو قصر فيه المفسرون من مباحث الألفاظ والإعراب والبلاغة وغيرها ، لذلك نجده كان حريصاً على تخلص تفسيره من جميع المسائل التى كثر حولها الخلاف بين المفسرين⁽³⁾.

كما نجد أن الإمام فى تفسيره للنصوص الدينية ، قد استخدم منهج التأويل بطريقة تؤكد سعة إطلاعه ورحابة أفقه ، ويعبر عن ذلك

(1) المصدر السابق والصفحة .

(2) محمد عبده (تفسير سورة الفاتحة) الطبقة 3 ، ص 8.

(3) د. عثمان أمين ، رائد الفكر المصرى ، ص 153.

بقوله : (اتفق أهل الملة الإسلامية - إلا قليلاً ممن لا ينظر إليه - على أنه إذا تعارض العقل والنقل ، أخذ بما دل عليه العقل وبقي فى النقل طريقان ؛ طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر إلى الله فى علمه ، وطريق تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه ما أثبتته العقل) (1).

ولننظر كيف استخدم الإمام هذه القاعدة فى تفسيره لبعض آيات القرآن الكريم ، ففى سورة الكوثر مثلاً فى الآية الأولى يقول الله تعالى : (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) ، يرى المفسرون أن الكوثر هو اسم لنهر فى الجنة ، وأن الله قد منح النبى صلى الله عليه وسلم ذلك النهر ، أما إذا رجعنا إلى تفسير الأستاذ الإمام (2) ، نجده قد فسر (الكوثر) بالرسالة ، التى فاضت بالخير الكثير على الإنسانية ، وهذا التفسير أقرب إلى العقل بطبيعة الحال .

كما نجد فى شرح الإمام لبعض آيات القرآن الكريم اختلافاً واضحاً مع المفسرين السابقين عليه ، حيث جرت عاداتهم على أن يطنبوا فى الكلام عن الأماكن والأشخاص الواردة فى القرآن الكريم بصورة مبهمه ، ولكننا نرى أن من القواعد المنهجية التى ترسمها محمد عبده فى التفسير ألا يجاوز فى شرحه ما يحتمله مضمون النصوص . مثال ذلك أنه فى سورة (البقرة) آية 58 (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ

(1) الإسلام دين العلم والمدنية ، ص 118 ، وقارن بابن رشد فى : فصل المقال.

(2) راجع تفسير الإمام لجزء عم ، ص 167.

رَغْدًا) نراه يقرر السكوت عن تعيين القرية ، كما سكت عنها القرآن ⁽¹⁾. وهكذا كان الإمام لا يقف كثيراً عند حدود الألفاظ وتعيينها ، وإنما كان يلتزم في هذا بمنهج القرآن الكريم نفسه .

ولنضرب مثلاً آخر يدل على رحابة وسعة فكر الإمام حين فسر القرآن الكريم ، فهناك سور من القرآن الكريم تبدأ بحروف ، مثل سورة البقرة (ا ل م) قد اختلف المفسرون في فهم معانيها ودلالاتها ، أما الإمام فيرى أن هذه الحروف وأشباهاها هي أسماء للسور التي توجد فيها . فإذا تساعلنا عن سبب الاختلاف بين الحروف (ا ل م) وبين الحروف (ا ل م ص) مثلاً أجاب الأستاذ بأنه لا علم لنا بذلك ، ولا أهمية لمعرفةنا به ، ومهما يكن الأمر فيجب أن يكون موقفنا من هذا كموقف الصحابة وتابعيهم (وليس من الدين في شيء أن يتنطع متنطع ، فيخترع ما يشاء من العلل التي قلما يسلم مخترعها من الزلل) ⁽²⁾.

هذا الطابع (البرجماتيقي) لمنهج الأستاذ محمد عبده في التفسير ظاهر جلي ؛ ففي أكثر من موضع ، رأينا الإمام ينبه إلى أن الواجب علينا أن نعتقد ما ورد في القرآن مادام لا يؤدي إلى شيء مخالف للعقل ، وعلينا ألا نسترسل مع بعض المفسرين في أهوائهم وتشدقهم بتصريف الألفاظ وتأويلها وتحميلها ما لا تحتمله من معاني ⁽³⁾.

(1) د. عثمان أمين ، رائد الفكر المصري ، ص 157.

(2) د. عثمان أمين ، رائد الفكر المصري ، ص 158.

(3) المصدر السابق ، ص 159.

الإصلاح الأخلاقي :

لا شك أن هناك علاقة وثيقة بين الدين والأخلاق ، فبقدر ما يعنى الإنسان أمور دين (قواعده وأصوله وأحكامه) بقدر ما يكون حظه من الخلق النبيل والسلوك القويم ، ويؤكد الإمام هذه الصلة الوثيقة فيرى (أن سعادة النفس الإنسانية إنما تكون بمعرفة الله وبالفضائل ، وأنها إنما تسقط فى الشقاء بالجهل بالله وبارتكاب الرذائل)⁽¹⁾.

إذ أن الإسلام دين الفطرة ، فهو منهج حياة ، يدعو إلى جميع الفضائل التى بها تستقيم حياة الإنسان ، وينهى عن كل الرذائل التى تؤدى بصاحبها إلى الهلاك والخسران ، فهو (لم يدع أصلاً من أصول الفضائل إلا أتى عليه ، ولا أما من أمهات الصالحات إلا أحيأها ، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها ، فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده كما ذكرنا حرية الفكر ، واستغلال العقل فى النظر ، وما به صلاح السجايأ واستقامة الطبع ، وما فيه إنهاض العزائم إلى العمل ، وسوقها فى سبيل السعى . ومن يتلو القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزاً لا ينفذ ، وذخيرة لا تفتنى)⁽²⁾.

وعلى هذا فالدين إنما هو أصلح الوسائل ، وأمثل السبل لتحقيق الإصلاح الأخلاقى ، وقد رأى الإمام أن الأذهان لما لم تكن قد نضجت

(1) رسالة التوحيد ، ص 74، تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا ، إصدار الهيئة العامة لقصور الثقافة .

(2) المصدر السابق ، ص 182.

نضجاً كافياً للاستعاضة عن العقائد المعنوية بالمبادئ المجردة ، لذلك فقد أوجب بدء الإصلاح بالدين ، وفي ذلك يقول في وضوح لا يحتاج إلى مزيد (وهذه سبيل لمزيد الإصلاح في المسلمين لا مندوحة عنها ؛ فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شئ ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً . وإذا كان الدين كافلاً تهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال ، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة به ما بيناه ، وهو حاضر لديهم ، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إمام لهم به ، فلم العدول عنه إلى غيره ؟) (1).

ويسوق لنا الإمام بعضاً من العبادات والسلوكيات التي تحمل في طياتها بعداً أخلاقياً ، والتي دعا إليها الإسلام ، فمثلاً : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فضيلة قد حث عليها القرآن الكريم ، لما في ذلك من درء للمفاسد الأخلاقية وإحياء للقيم التي بها تستقيم حياة الجماعة ، وقد سخر الله سبحانه طائفة من الناس يرشدونهم ويدلونهم إلى فعل الخيرات وترك المنكرات ، يقول : (حث القرآن على التعليم وإرشاد العامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (2).

(1) نقلًا عن د. عثمان أمين : رائد الفكر المصري ، ص 150.

(2) سورة آل عمران : آية 104 ، انظر رسالة التوحيد ، ص 179.

ثم يستعرض الإمام بعد ذلك حال الأمرين بالمعروف ، والناهيين عن المنكر فى أجل مظهر يمكن أن يظهر فيه حال أمة فقال : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)⁽¹⁾. فقدم ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان فى هذه الآية مع أن الإيمان هو الأصل الذى تقوم عليه أعمال البر ، والدوحة التى تتفرع عنها أفنان الخير ، تشريعاً لتلك الفريضة وإعلاء منزلتها بين الفرائض ، ثم شدد بالإكثار على من أهملوها فقال : (لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)⁽²⁾. فقف سبحاته وتعالى عليهم اللعنة وهى أشد ما يعبر به الله عن مقته وغضبه⁽³⁾.

والصوم كما يقول الإمام (حرمان يعظم به أمر الله فى النفس وتعرف به مقادير النعم عند فقدانها ، ومكانة الإحسان الإلهى فى التفضل بها)⁽⁴⁾. أى أن الله قد فرض الصوم لتحقيق فضيلة الصبر عن التمتع بنعم الله الكثيرة ، والتى تفضل الله بها على عباده وحبابها إياهم ، فبالصوم أمرهم سبحاته وتعالى بالإمساك والبعد عنها من طلوع الفجر إلى غروب الشمس وفيه إحساس بالفقراء والمحتاجين ، وحث على البذل والعطاء .

(1) سورة آل عمران : آية 110.

(2) سورة المائدة : آية 78 ، 79.

(3) رسالة التوحيد ، ص 180 - 181.

(4) المصدر السابق ، ص 175.

وكذلك الحج فهو يحقق معنى المساواة للخلق أجمعين بين يدى الخالق سبحانه وتعالى ، ولو مرة فى العمر ، (حيث يرتفع فيها الامتياز بين الغنى والفقير ، والصعلوك والأمير ، ويظهر الجميع فى معرض واحد مكشوفى الرؤوس متجردين عن المخيط ، وحدث بينهم العبودية لله رب العالمين) ⁽¹⁾.

وختاماً لحديثنا عن النهضة الفكرية عند الإمام محمد عبده ، يمكننا القول بأن الإمام كان مثلاً يحتذى ، حيث استطاع أن يبسط نفوذه الروحى بنشر التعاليم الأخلاقية عن طريق القدوة الحسنة والمثل الفعال ، وأن نظرته الشاملة للمجتمع قد مكنته من تشخيص الداء الذى استشرى خطره على مختلف نواحي الحياة الثقافية فى مصر ، ومن ثم استطاع أن يضع الدواء الملائم والعلاج المناسب لاستئصال جذور الخطر ، والقضاء على ما حل بالمجتمع من جمود وركود ، وإصلاح ما فسد من المعتقدات والأفكار.

بل ويمكننا القول أيضاً إن أفكار هذا المصلح الإسلامى الأصل مازالت تحتفظ ، على الرغم من مرور الزمن وتغير الظروف ، بقدر كبير من جدتها وتميزها ، وأن بعض الحلول التى توصل إليها ووضعها ، تعتبر علاجاً شافياً وحلاً كافياً لكثير من المشكلات التى تواجه مجتمعنا فى العصر الحالى .

(1) رسالة التوحيد ، ص 175.